إثبات المكر والكيد لله تعالى

قال المؤلف –رحمه الله تعالى–:

(وَقَوْلُهُ: {وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ} [الرعد: ١٣]. وَقَوْلُهُ: {وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ} [آل عمران: ٥٤]. وَقَوْلُهُ: {وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ} [النمل: ٥٠]. وَقَوْلُهُ: {إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (١٥) وَأَكِيدُ كَيْدًا} [الطارق: ١٥، ١٦]).

(الشرح)

كل ما وصف الله به نفسه، أو وصفه به نبيه، صلى الله عليه وسلم، فهو حق على حقيقته؛ يجب إجراؤه على ظاهره، ولا يُتعرض له بأي لون من ألوان التحريف، أو التعطيل، أو التكييف، أو التمثيل، سواءٌ في ذلك الصفات الذاتية المعنوية، أو الصفات الخبرية، أو الصفات الفعلية؛ فالقول فيها واحد لا تفاوت فيه.

وهذه طائفة من الصفات التي تُضاف إلى الله تعالى، كما أضافها لنفسه، لكنها تُضاف إليه مُقيدة، لا مُطلقة؛ وذلك لأن مدلولاتها تنقسم إلى محمود ومذموم، فلما كان الوهم قد يتطرق إلى العُقول باحتمال المعنى المذموم؛ وجب أن تُضاف إلى الله تعالى مُقيدة.

قال ابن فارس في ذكر أحد معاني المحل: (مَحَلَ به، إذَا سَعَى به)[١]، وقال في تعريف المكر: (الاحْتِيَالُ وَالْخِدَاعُ)[٢]، وقال في تعريف الكيد: (الْمُعَالَجَةُ. قَالُوا: وَكُلُّ شَيْءٍ تُعَالِجُهُ فَأَنْتَ تَكِيدُهُ. هَذَا هُوَ الْأَصْلُ فِي الْبَابِ، ثُمَّ يُسَمُّونَ الْمَكْرَ كَيْدًا)[٣].

فهذه معاني هذه المفردات من حيث الوضع اللغوي؛ تدل على سعي وحيلة، ومخادعة ومعالجة، لإيصال الضرر بأحد، بطريق خفي.

ومن هنا كان مدلولها ينقسم إلى قسمين:

- محمود: وهو إيصاله إلى مستحقه.
- مذموم: وهو إيصاله إلى غير مستحقه.

---

[١] معجم مقاييس اللغة: (٥/ ٣٠٢).

[٢] معجم مقاييس اللغة: (٥/ ٣٤٥).

[٣] معجم مقاييس اللغة: (٥/ ١٤٩).

مثال ذلك: لو قُدر أن مُحتالًا يأخذ أموال الناس بالباطل؛ يُوهمهم أنه يُريد أن يتجر بها، وأنه يُريد الإحسان؛ فيمنحه الناس ثقتهم، ويُعطونه أموالهم، ثم يذهب بها! فهذا مكر مذموم، وكيد مذموم، لأنه أوصل الأذى إلى بريء بطريقة خفية، فلو قدر أن أحدًا من الشرطة الجنائية أعد له كمينًا؛ واتصل به، وأطمعه في نفسه، واستدرجه بالحيلة والخداع، حتى تمكن منه وقبض عليه، ففِعل هذا الشُرطي يُعد مكرًا محمودًا، وكيدًا محمودًا؛ لأنه أوصل الأذى إلى مُستحقه.

فلله تعالى المثل الأعلى؛ مكر الله، وكيد الله، كله محمود، لأنه منزه عن الظلم والحيف، كما قال تعالى: {وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ} [فصلت: ٤٦]، وقل مثل ذلك في الخداع، والاستهزاء، والسخرية، ونحوها.

ولما كانت مدلولاتها محتملة للمعنيين؛ في أصل الوضع؛ لم يجز أن يُشتق من هذه الأوصاف أسماءً لله تعالى، فلا يجوز أن يُقال: من أسماء الله: الماكر، والكائد، والمخادع، والمستهزئ، والساخر؛ لأن الدلالة المباشرة لهذه الألفاظ قد تُوهم المعنى المذموم.

كما أنه لا يُخبر بها عن الله على سبيل الإطلاق، وإنما على سبيل المقابلة والتقييد، بخلاف غيرها من الصفات؛ فتستطيع أن تُخبر بها عن الله، فتقول: المُريد، والشائي؛ والجائي؛ لأنه يريد، ويشاء، ويجيء؛ فهو خبر لا يتضمن ذلك نقصًا، ولا يوهم نقصًا، وإن لم تكن من الأسماء الحُسنى، وقد قال النبي، صلى الله عليه وسلم: (اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الْكِتَابِ، وَمُجْرِيَ السَّحَابِ، وَهَازِمَ الْأَحْزَابِ، اهْزِمْهُمْ وَانْصُرْنَا عَلَيْهِمْ)[1]، وليس من أسمائه، المنزِل، والمجري، والهازم.

وباب الأخبار أوسع من باب الأسماء، والسبب أنك تُخبر عن الله تعالى بصفاته وبأفعاله، فكل اسم من أسماء الله يُمكن أن تشتق منه صفة، ولا عكس؛ لا يلزم من إثبات الصفة إثبات الاسم؛ فالله تعالى قد قال عن نفسه: {وَجَاءَ رَبُّكَ} [الفجر: ٢٢]، وليس من أسماءه الجائي، وقال: {إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ} [النحل: ٤٠]، وليس من أسمائه المُريد، وهكذا. لكن لا بد أن يكون الخبر المخبر به عن الله، سبحانه وتعالى، لا يتضمن نقصًا؛ فيسوغ أن نُجاري المتكلمين، ونقول عن الله تعالى: إنه "واجب الوُجود"، لأنه لا يتضمن نقصًا، وإن كان (الواجب)، ليس من أسماء الله الحُسنى، فلا يُعبّد به؛ فيُقال: عبد الواجب؛ فأمثال هذه الألفاظ، التي لا تتضمن نقصًا، ولا توهم نقصًا، يجوز أن يُخبر بها عن الله.

أما هذا النوع فإنه لا يُخبر به عن الله إلا مُقيدًا، فيُقال مثلًا: الماكر بالماكرين، الكائد للكائدين، وهكذا؛ فحينئذٍ يسوغ الإخبار بها؛ قال تعالى: {يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ} [النساء: ١٤٢]، وقال:

---

[1] أخرجه البخاري: رقم (٢٩٦٥)، ومسلم: رقم (١٧٤٢).

{قَالُواْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُونَ (١٤) اللَّهُ يَسْتَهْزِىءُ بِهِمْ} [البقرة: ١٤، ١٥]، وقال: {الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ} [التوبة: ٧٩]، فسيقت على سبيل المقابلة؛ لانقسام مدلولاتها إلى محمود ومذموم.

قوله: {وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ}: المحل: شدة الكيد؛ فقد وصف الله نفسه بالكيد، بل بشدة الكيد، لكنه كيد بمن يستحق أن يُكاد به.

قوله: {وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ}: يعني بذلك يهود، فإن بعض يهود وشى بعيسى ابن مريم، عليه السلام، لدى "بيلاطس"، الحاكم الروماني لبيت المقدس زمن المسيح عليه السلام ؛ ليقبض عليه ويقتله بدعوى أنه يُريد أن يُقيم ملكًا لبني إسرائيل، وأخبروا عن موضعه، ولكن الله سبحانه وتعالى استنقذه من بين أيديهم، ورفعه إليه، وألقى شبهه على الواشي؛ فبطل مكرهم، وانقلب الأمر عليهم، ونفذ مكر الله فيهم؛ لكونهم أهلًا أن يمكر بهم.

قوله: {وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ}: أولئك الرهط من قوم صالح، عليه السلام، الذين ذكرهم الله تعالى بقوله: {وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ (٤٨) قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ} [النمل: ٤٨، ٤٩]، هذا مكرهم! أما مكر الله، الذي لا طاقة لهم به، فقد بيّنه بقوله: {فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (٥١) فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥٢) وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ} [النمل: ٥١ -٥٣].

قوله: {إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (١٥) وَأَكِيدُ كَيْدًا}: كيد مقابل كيد؛ وقد كان المشركون يسعون بما أوتوا من قوة لإطفاء نور الله، ويفتلون في الذروة والغارب للصد عن سبيل الله، كما قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ} [الأنفال: ٣٦]، وقال: {وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [التوبة: ٩٨]، وقال: {وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا } [سبأ: ٣٣]؛ لكن هذا المكر الكبّار، والكيد المحال، يتلاشى ويضمحل أمام مكر الله وكيده، الذي بيده مقاليد السماوات والأرض.

والمكر، والكيد، والمحل صفات فعلية، لأنها مُتعلقة بمشيئته وحكمته؛ فالله، سبحانه وتعالى، يتصف بها إذا وجد سببها ومقتضاها.

أما أهل البدع فقد أولوا ما هو أوضح منها وأبين، فكيف بهذه، التي يُمكن أن تحتمل معنى غير مُراد! فإنهم يُسارعون في صرفها عن ظواهرها، وعدم إثباتها لله، ويحملونها على الانتقام، أو إرادة الانتقام.

والأثر مسلكي للإيمان بها: ألا يأمن المؤمن مكر الله؛ قال تعالى: {أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ} [الأعراف: ٩٩]، كما يوجب له الحذر والخشية من اجتراح فعل على سبيل المكر، فيُوقعه الله تعالى بمغبته، كما أنه أيضًا يُنزل على نفسه الطُمأنينة، أنه مهما كاد الكائدون، ومكر الماكرون، فالله لهم بالمرصاد؛ فهو أسرع مكرًا، كما قال: {قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا} [يونس: ٢١].

إثبات صفات العفو والمغفرة والرحمة والعزة والقدرة لله تعالى

قال المؤلف –رحمه الله تعالى–:

(وَقَوْلُهُ: {إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا} [النساء: ١٤٩]، {وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [النور: ٢٢]. وَقَوْلُهُ: {وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ} [المنافقون: ٨]، وَقَوْلُهُ عَنْ إِبْلِيسَ: {فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ} [ص: ٨٢]).

(الشرح)

هذه الطائفة من الآيات تضمنت إثبات أربعة أسماء من أسماء الله الحسنى، وهي: العفو، والقدير، والغفور، والرحيم، وما تضمنته من صفات العفو، والقدرة، والمغفرة، والرحمة، كما تضمنت إثبات صفة العزة لله، عز وجل، وكل ذلك نُثبته لربنا كما أثبته لنفسه؛ فنحن نُثبت لله الصفات، كما نُثبت له الأسماء.

قوله: {إِن تُبْدُواْ خَيْرًا}: ابداؤه: إظهاره، و(خيراً) نكرة في سياق الشرط فدلت على العموم؛ يعني: كل خير.

قوله: {أَوْ تُخْفُوهُ}: أي تُسروه.

قوله: {أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوَءٍ}: أي: تصفحوا عن مسيء؛ مأخوذ من قولهم: عفا الأثر: إذا زال وامّحى، وهذا ليس فعلًا وُجوديًا، بل هو إحسان تركي.

قوله: {فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا}: العفو: هو الصفح والتجاوز، والقدرة هي: التمكن من الفعل من غير عجز، والفرق بين القوة والقدرة: أن القوة هي التمكن من الفعل من غير ضعف، وأما القدرة فهي التمكن من الفعل من غير عجز.

وإبداء الخير: كمن يتصدق علانية، قال تعالى: {إِن تُبْدُواْ الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ} [البقرة: ٢٧١]، فلا حرج أن يُبدي الإنسان صدقته أحيانًا، لكن الإسرار أفضل؛ لأنه أقرب إلى الإخلاص، وأبعد عن الرياء، إلا إنْ اقترن بالإبداء مصلحة؛ كالاقتداء والتحفيز، فالإبداء أفضل.

عن جرير بن عبد الله ﷺ قال: (كُنّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فِي صَدْرِ النّهَارِ، قَالَ [ص:٧٠٥]: فَجَاءَهُ قَوْمٌ حُفَاةٌ عُرَاةٌ مُجْتَابِي النّمَارِ أَوِ الْعَبَاءِ، مُتَقَلّدِي السّيُوفِ، عَامّتُهُمْ مِنْ مُضَرَ، بَلْ كُلّهُمْ مِنْ مُضَرَ فَتَمَعّرَ وَجْهُ رَسُولِ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ لِمَا رَأَى بِهِمْ مِنَ الْفَاقَةِ، فَدَخَلَ ثُمّ خَرَجَ، فَأَمَرَ بِلَالًا فَأَذّنَ وَأَقَامَ، فَصَلّى ثُمّ خَطَبَ فَقَالَ: {يَا أَيُّهَا النّاسُ اتّقُوا رَبّكُمُ الّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ} [النساء: ١] إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، {إِنّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا} [النساء: ١] وَالْآيَةَ الّتِي فِي الْحَشْرِ: {اتّقُوا اللهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدّمَتْ لِغَدٍ وَاتّقُوا اللهَ} [الحشر: ١٨] «تَصَدّقَ رَجُلٌ مِنْ دِينَارِهِ، مِنْ دِرْهَمِهِ، مِنْ ثَوْبِهِ، مِنْ صَاعِ بُرّهِ، مِنْ صَاعِ تَمْرِهِ - حَتّى قَالَ - وَلَوْ بِشِقّ تَمْرَةٍ» قَالَ: فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ بِصُرّةٍ كَادَتْ كَفّهُ تَعْجِزُ عَنْهَا، بَلْ قَدْ عَجَزَتْ، قَالَ: ثُمّ تَتَابَعَ النّاسُ، حَتّى رَأَيْتُ كَوْمَيْنِ مِنْ طَعَامٍ وَثِيَابٍ، حَتّى رَأَيْتُ وَجْهَ رَسُولِ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ يَتَهَلّلُ، كَأَنّهُ مُذْهَبَةٌ)[١].

فدل الحديث على أنه لا بأس بإبداء الصدقات، وأن إبداءها أحيانًا أفضل من إخفائها إذا حصل بذلك اقتداء، شريطة الإخلاص لله، عز وجل، والأمن من أن يتسلل إلى النفس شيء من الرياء؛ أما عند التساوي فالإخفاء أفضل؛ لقول النبي، صلى الله عليه وسلم، في ذكر السبعة الذين يُظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: (وَرَجُلٌ تَصَدّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ)[٢].

---

[١] أخرجه مسلم: رقم (١٠١٧).

[٢] أخرجه البخاري: رقم (١٤٢٣)، واللفظ له، ومسلم: رقم (١٠٣١).

قوله: {أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوَءٍ}: العفو عن السوء إحسان، لأن الإنسان إذا أسقط حقه فقد أحسن إلى من أساء إليه، كأنما تبرع له، وقلده منّة عدم المطالبة في الدُنيا والآخرة، وهذا يدل على أن العفو صفة حميدة ينبغي أن يُربي الإنسان نفسه عليها، فإن من أقبح الصفات العتب، والحقد، واختزان الضغينة، ويُقال: إن أحكم بيت قالته العرب:

إذا كُنــت في كل الأمـــور مُعاتبًا صديقك لم تلق الذي لا تُعاتبه

فـعـش واحدًا أو صل أخـاك فإنه مقـارف ذنـبٍ مـرة ومجـانـبه

ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها كفى المرء نبلًا أن تُعد معايبه[1]

وإذا كان الإنسان كلما وقع له حدث نكت في قلبه نكتة، فإن هذا التراكم يؤذيه، لأن كل غِل في القلب فهو كاسمه: غِلٌ؛ قيدٌ وَضعته في قلبك، فحاول أن تتخفف من هذه الأغلال بالعفو.

وقد أغرى الله المؤمنين، وهيجهم على العفو، فقال: {فَإِنَّ اللّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا} [النساء: ١٤٩]، والجزاء من جنس العمل.

وهذا مثال آخر على أن اقتران أسماء الله الحُسنى بعضها ببعض يُعطيها حُسنًا مُضاعفًا، وإلا فكل اسم من الأسماء الحُسنى قد بلغ في الحُسن غايته في بابه؛ لكن يظهر حسن جديد بالاقتران؛ فأكمل ما يكون العفو مع المقدرة، كما أن قدرة لا يُصاحبها عفو تستحيل بطشًا، فلو أن سُلطانًا من السلاطين تمكن من خصم له، ووقع في قبضته، فعفا عنه وأطلق سراحه، فإنها تُعد محمدة له ومنقبة، كما صنع النبي، صلى الله عليه وسلم، بقريش حينما قال: (مَا تروْنَ أَنِّي صَانِعٌ بِكُمْ؟ " قَالُوا: خَيْرًا، أَخٌ كَرِيمٌ وَابْنُ أَخٍ كَرِيمٍ، قَالَ: " اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ")[2]؛ فالعفو مع المقدرة من شيم الكرام، وربما العفو مع غير مقدرة، فلا شك أنه محمود، لكن ليس بدرجة الأول. فلو أن رجلًا من العامة ظلمه سُلطان من السلاطين، فضرب ظهره، وأخذ ماله، فقال: قد عفوت عنك! فهو عفو، لكن لقائلٍ أنْ يقول: لا سبيل أن يقتص منه، بسبب عجزه، فلا محمدة فيه، إلا أن يريد عفو الآخرة.

فربنا، سبحانه وبحمده، عفو قدير، لو شاء سبحانه لأهلك الناس في طرفة عين؛ انظروا إلى حلمه سبحانه! يُعبد غيره، ويُخالف أمره، ومع ذلك يقبل التوبة عن عباده، ويعفو عن السيئات، مع قدرته على العقوبة؛ قال تعالى: {وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ} [الكهف: ٥٨]، وقال: {وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ} [النحل: ٦١]

---

[1] قاله بشار بن برد في قصيدته التي مطلعها–(جفا ودهُ فازور أو مل صاحبهُ).

[2] أخرجه البيهقي في السنن الكبرى: رقم (١٨٢٧٦).

قوله: {وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ}: نزلت هذه الآية في حادث الإفك المذكور في سورة النور، وكان من ضمن من وقع في حديث الإفك مسطح بن أُثاثة، وهو من فقراء المُهاجرين، فقَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَكَانَ يُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحِ بْنِ أُثَاثَةَ لِقَرَابَتِهِ مِنْهُ وَفَقْرِهِ: (وَاللَّهِ لَا أُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحٍ شَيْئًا أَبَدًا بَعْدَ الَّذِي قَالَ لِعَائِشَةَ مَا قَالَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: {وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي القُرْبَى وَالمَسَاكِينَ وَالمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا، أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} قَالَ أَبُو بَكْرٍ: بَلَى وَاللَّهِ إِنِّي أُحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لِي)[1]، فَرَجَعَ إِلَى مِسْطَحٍ النَّفَقَةَ الَّتِي كَانَ يُنْفِقُ عَلَيْهِ. ومعنى {وَلَا يَأْتَلِ}: من الأَلِيّة، وهي اليمين؛ فنهى الله تعالى أن يحلف الإنسان على مثل هذا.

قوله: {وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ}: قدم الجار والمجرور ليدل على الاختصاص، والعزة: تعني القوة والصلابة، تقول العرب: أرض عزاز، يعني أنها صلبة ليست رُخوة، وهي أنواع: عزة امتناع، وعزة غلبة، وعزة قُدرة.

فلله تعالى المثل الأعلى من العزة، وللنبي، صلى الله عليه وسلم، عزة تليق به، وللمؤمنين عزة تليق بهم؛ فكون الوصف يُضاف إلى الله، وإلى رسوله، وإلى المؤمنين، لا يستلزم التماثل؛ فإن الاشتراك إنما هو في أصل المعنى، وأما في الحقيقة والكيفية فيزول الاشتراك في الأذهان بالإضافة إلى الأعيان.

وقد جاءت هذه الجملة في سياق الرد على المُنافقين حين قالوا: {لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ} [المنافقون: ٨]؛ فعن جَابِرٍ رضي الله عنه قال: (كُنَّا فِي غَزَاةٍ – قَالَ سُفْيَانُ: مَرَّةً فِي جَيْشٍ – فَكَسَعَ رَجُلٌ مِنَ المُهَاجِرِينَ، رَجُلًا مِنَ الأَنْصَارِ، فَقَالَ الأَنْصَارِيُّ: يَا لَلْأَنْصَارِ، وَقَالَ المُهَاجِرِيُّ: يَا لَلْمُهَاجِرِينَ، فَسَمِعَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: «مَا بَالُ دَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَسَعَ رَجُلٌ مِنَ المُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنَ الأَنْصَارِ، فَقَالَ: «دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ» فَسَمِعَ بِذَلِكَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ، فَقَالَ: فَعَلُوهَا، أَمَا وَاللَّهِ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى المَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ، فَبَلَغَ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَامَ عُمَرُ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا المُنَافِقِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّهُ كَانَ يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ)[2]؛ فأذله الله أيما إذلال؛ فقد قيض الله ابنه عبد الله، وهو من خيار المؤمنين، فوقف على باب المدينة، وقال: والله لا يجُوزها إلا بإذن رسول الله،

---

(١) أخرجه البخاري: رقم (٤٧٥٠)، ومسلم: رقم (٢٧٧٠).

٢ أخرجه البخاري: رقم (٤٩٠٥)، ومسلم: رقم (٢٥٨٤).

صلى الله عليه وسلم! حتى أرسل إليه النبي، صلى الله عليه وسلم: أن خل بينه وبين الدخول؛ فثبتت العزة لله، ولرسوله.

وقد دلت الآية على إثبات صفة العزة لله، وفيها رد بليغ على المعتزلة، الذين يُثبتون الأسماء مفرغة من الصفات، ونظيرها قول الله تعالى: {مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا} [فاطر: ١٠].

قوله: {فَبِعِزَّتِكَ لأغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ}: إبليس يحلف بعزة الله! مما يدل على أن إبليس عارف بصفات الله تعالى، معظم لها، حتى إنه يقسم بعزة الرب سبحانه؛ فشيء يعرفه إبليس ويُثبته، عجبٌ أن يُنكره نُفاة الصفات!

وفي الآية دليل على جواز الحلف بالصفة؛ فيجوز الحلف باسم من أسماء الله تعالى، أو بصفة من صفاته، وكما تجوز الاستعاذة بأسماء الله، تجوز الاستعاذة بصفاته؛ كما قال النبي، صلى الله عليه وسلم: (أَعُوذُ بِاللهِ وَقُدْرَتِهِ) ([1]) وفي رواية (أَعُوذُ بِعِزَّةِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ)[2]، وقال: (أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ) ([3]).

أما الدعاء فلا يكون إلا بأسماء الله؛ كما قال سبحانه: {قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى} [الإسراء: ١١٠]، ولا يجوز دعاء الصفة؛ بأن يقول: يا عزة الله! يا رحمة الله! لما في ذلك من إيهام انفصال الصفة عن الموصوف، وأنها غيره؛ كما تدعي المعتزلة، وإنما الصفة للموصوف؛ لا هي هو، ولا هي غيره.

وهذه الصفات الكريمة لها أثر مسلكي على نفس المؤمن:

- فإيمانه بعفو الله ورحمته ومغفرته ينسم على قلبه نسائم الرجاء، ويحمله على أن يغفر لمن أساء إليه، ويعفو عمن ظلمه، ويرحم سائر الناس.
- وإيمانه بعزة الله يمنحه القوةً والطمأنينة، وأنه يأوي إلى رُكن شديد، لا يضام. وهكذا كل اسم لله تعالى يُفيض على النفس المؤمنة فيضًا إيمانيًا نافعًا، يحملها على المكرمات، ويحجزها عن ضدها.

---

[1] أخرجه مسلم: رقم (٢٢٠٢).

[2] أخرجه أبوداود: رقم (٣٨٩١)، وابن ماجه: رقم (٣٥٢٢)، والترمذي: رقم (٢٠٨٠)، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

[3] أخرجه مسلم: رقم (٤٨٦).